العولمة وتأثيراتها على البنية الثقافية للمجتمعات العربية المجتمع البيظاني نموذجا

Globalization and its impact on the cultural structure of Arab societies the bidhani community is a model

أ.محمد الترسالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرا فاس- المغرب

ملخص: أصبح موضوع العولمة من بين المواضيع التي تثار في أغلب النقاشات سواء منها الأكاديمية أو الصحافية أو العامية التي تحدث بين أفراد المجتمع على اختلاف تكويناتهم ومشاربهم الثقافية والفكرية، هذا نتج عنه ما يمكن أن نصطلح عليه بتداخل الرؤى والمواقف تجاه قضايا مصيرية في عالمنا العربي المعاصر، غير أن الأمر يختلف باختلاف طريقة التحليل والتفسير التي تعطى للعولمة كموضوع الساعة في شتى مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات البشرية.

ولما كان الأمر كذلك، فإنه من اللازم أن نحدد طبيعة تلك النقاشات عبر تأصيل علمي أكاديمي مبني على تبيان تجليات العولمة على البنية الثقافية للمجتمع العربي عموما، ومظاهرها في المجتمع البيظاني بوجه خاص.

الكلمات المفتاحية: العولمة، والثقافة، والهوية.

Abstract: The topic of globalization has become one of the topics that are raised in most of the discussions, whether academic, journalistic or colloquial, which occur among members of society in different configurations and cultural and intellectual issues. This resulted in what we can call the overlap of visions and attitudes towards fateful issues in our contemporary Arab world. It is different according to the method of analysis and interpretation given to globalization as the theme of the hour in various aspects of social and economic life of human societies.

As such, it is necessary to define the nature of these discussions by establishing an academic academic based on the manifestations of globalization on the cultural structure of Arab society in general and its manifestations in the bidhani community in particular.

Keywords: globalization, culture and identity.

مقدمة:

على سبيل التقديم، بادي ذي بدء يمكن القول بأن الموضوع الذي نشتغل عليه من بين الموضوعات التي أصبحت موجهة لسير التفاعل والنقاش في أغلب الأوساط الفكرية العربية، وخاصة الفئة المثقفة حيث شاعت كلمة العولمة لدى الدارسين والباحثين باعتبارها نسق غطى أرجاء الكون، وأصبح يشكل نظاما عالميا موحدا جديدا، والذي يعني العالمية في كل شيء حتى أطلق على العالم بالقرية الصغيرة، ومن ثم أصبحت العولمة موضوع الساعة، ولم تقتصر على ذوي الاختصاص بل تجاوز الأمر ذلك إلى أن صارت متداولة بين جميع الناس، وهذا ماجعلها تحتل حيزا كبيرا على مستوى النقاش العمومي الدائر بين الجميع، ومن ثم أسست منظومة لوضع لبنات أساسية للتعرف على العولمة ومظاهرها وتجلياتها، وطرحت قضايا مصيرية مع التوجه الجديد للعالم من قبيل موقع الهويات في ظل التحولات العالمية، والمستجدات التي طرأت عليها عبر حركية التاريخ، وتبدل الأدوار، والمكانات الاجتماعية.

لقد شهد العالم مجموعة من التحولات البنيوية العميقة بفضل الثورة التكنولوجيا السريعة التي لازالت متطورة عبر مسارها العام بحيث أفرزت لنا مجموعة من المعطيات الجديدة التي غيرت مناحي الحياة الاجتماعية بصورة واضحة للعيان حتى أصبحنا نتحدث بمفاهيم مختلفة وأحيانا متضاربة كالتطور والتقدم / التبعية والتقليد، المجتمعات المتطورة/ المجتمعات المتخلفة، التحرر والاستقلال/ الغزو و الاستلاب، الحرية الشخصية/ الحدود والقيود، وغيرها من المفاهيم التي عمل عليها المثقفون العرب وبينوا أين موقعنا من العالم بصورة واضحة.

ومع العولمة ظهرت مفاهيم جديدة وعلاقات جديدة غيرت الذهنيات والمنطلقات الأساسية التي كانت سائدة في العقل الجمعي العربي، وبذلك غيرت طريقة الحياة الاجتماعية بفضل تطور وسائل الاتصال الجماهيري وكذا انفتاح الأسواق. ومن خلال هذا كله يطرح السؤال المحوري نفسه بإلحاح؛ ماهي تأثيرات العولمة على البنية الثقافية للمجتمعات العربية؟ وما هي مظاهرها في مجتمع الساقية الحمراء ووادي الذهب؟

تكمن أهمية الدراسة بوصفها دراسة وصفية تحليلية لظاهرة العولمة، وإبراز تأثيراتها على المجتمع من خلال تحديد خصائصها المتفردة. كما أن المنهج المتبع هو منهج دراسة الحالة، والأداة المستعملة هي الملاحظة، وتقنية المقابلة التي أجريناها مع عشرة أفراد، في مدن العيون والسمارة.

أولا. تحديدات مفاهيمية:

الثقافة: يعتبر مفهوم الثقافة من بين المفاهيم الأكثر شيوعا وانتشارا في الحقل الانثربولوجي، والأكثر تعقيدا وغموضا كذلك، ويعد " تيلور Taylor " من بين الذين أسهموا في تعريف الثقافة، وذلك في كتابه المشهور: الثقافة البدائية الصادر سنة 1871 حيث وضع تعريفا في مطلع الكتاب جاء فيه: **"** إن الثقافة أو الحضارة بالمعنى الواسع: هي ذلك الكل المركب والمعقد الذي يشمل المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والتقاليد، وكل التقديرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بكونه عضو في المجتمع(Taylor, 1931, p3).

كما حدد الباحث طاهر لبيب عرضا بين من خلاله نوعية المساهمة في الميدان الثقافي بالنسبة لمراحل: أنثربولوجية وسوسيو معرفية سابقة. من مستويات كبرى التي تناولها القسم الثاني منه (بنية فوقية/ بنية تحية- المثقفون كرابطة عضوية بينهما- تاريخية الأدب والفن كمجال تطبيقي) تمحورت كلها حول اعتبار منهجي أساسي: لا تفسر الظواهر الثقافية أو الإيديولوجية بصفة عامة إلا في إطار علاقتها بالمعطيات الموضوعية لصيرورة المجتمعات (Taylor, 1931, p75-76).

1.العولمة وإشكالية المفهوم:

تعرف العولمة بكونها اتصال عالمي يهدف إلى التغير الكوني الجارف بغية تحقيق ما يمكن أن نصطلح عليه بالثقافة الواحدة العالمية الموحدة على مستوى الجوهر والشكل، وبالتالي فإن العولمة لها بعد عالمي وغاية تسويقية.

يختلف مفهوم العولمة حسب غايات الدارسين وفهمهم لها على جل الميادين والأصعدة إذ هي حسب وصف بعض الباحثين بالعملية التي تغطي أغلب الكوكب أو تشيع على مستوى العالم، ومن هنا فالعولمة لها بعد مكاني، لأن السياسة والأنشطة الاجتماعية الأخرى أصبحت تبسط رواقها على كل أنحاء المعمورة. إن العولمة تتضمن تعميقا في مستوى التفاعل، والاعتماد المتبادل بين الدول والمجتمعات التي يتكون منها المجتمع العالمي، فالعولمة إذن عملية كونية (السيد ياسين، 2001، ص16).

ويعرف أيضا عالم السياسة الأمريكي "جيمس روزناو" العولمة بإقامتها علاقة بين مستويات متعددة للتحليل والتركيب، الاقتصاد والسياسة والثقافة والأيديولوجية التي تشمل إعادة تنظيم الإنتاج وتداخل الصناعات عبر الحدود وانتشار أسواق التمويل، وتماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة (السيد ياسين، 2001، ص16).

ومن هنا فالعولمة تمظهرت عبر وسائل الاتصال والأقمار الصناعية وشاشة التلفاز، والصحون الهوائية التلفزيونية، والهاتف، والحاسوب، وشبكة الانترنت وتطورها، والطائرة وسهولة السفر، والتلاقي الحضاري.

بينما يعرف صادق العظم العولمة باعتبارها نمط من أنماط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف القرن العشرين تقريبا إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التوزيع والتبادل والتداول والتجارة إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها؛ أي أن ظاهرة العولمة التي نشهدها هي بداية عولمة الإنتاج الرأسمالي أيضا ونشرها في كل مكان مناسب خارج مجتمع المركز الأصلي ودوله، وهذا يعني أن العولمة هي مرحلة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ(السيد ياسين، 2001، ص20) بين من ينتج ومن يستهلك، بين من يَستغِل ويُستغَل.

هذا يبين وبوضوح تمام أن العولمة كنظام عالمي جديد نشأ عن طريق تطور الرأسمالية العالمية، والتي بدورها تطورت تدريجيا عبر مراحل أساسية بدأت من المرحلة البروتستانتية والرأسمالية الفكرية ثم التجارية، فالرأسمالية الصناعية، فالرأسمالية المالية التي تمر الآن بمرحلة

ما بعد الصناعة، ولا يعني ذلك أن الرأسمالية المعاصرة قد تجاوزت ذلك كله إلى مرحلة أرقى من تطوير قوى الإنتاج استنادا إلى العلم والتكنولوجيا التي وضعتها بالضرورة في خدمة مشروعها التجاري والصناعي والمالي(فؤاد مرسي، 1990، ص15).

وفي موضع ثاني يقول "كيفن روبنز" عن العولمة معتبرا إياها ظاهرة غربية "رغم أن الرأسمالية العالمية قدّمت بصفتها عابرة للتاريخ وللقومية، وبأنها قوة متعالية وكلية للتحديث والحداثة. فإنها في الحقيقة كانت تعني الغربنة – أي تصدير السلع والقيم والأولويات وطرق الحياة الغربية. في سياق التلاقي الثقافي غير المتساوي، تُجبر الشعوب الغربية على أن تصبح رعايا وتوابع للإمبراطورية الغربية، وفي الوقت ذاته، وبطريقة لا تقل أهمية، يندفع الغرب ليواجه مباشرة الثقافة ال "أجنبية" و ال "الغربية" العائدة الـ "أخر". العولمة تجعل من اللقاء بين المركز الكولونيالي والطرف المستعمَر لقاءً مباشراً ومركّزاً في سياق تحطيمها لحواجز المسافة"(ستيورات هول، 2008، ص164-165).

إن العولمة الثقافية كما يرى البعض من أخطر التجليات السلبية للعولمة لأنها تهدف إلى إحداث قطيعة نهائية بين الذات الاجتماعية وخصوصياتها الحضارية، بمعنى القضاء على جميع الثقافات الخصوصية ذات بعد محلي واستبدالها بثقافة موحدة عالمية بغية تحطيم القيم والثقافة وكذا الأصالة، وإستبدالها بقيم مؤمركة وغربية من أجل السيطرة على الدول والمجتمعات وثقافتهم وقيمهم، وذلك عبر إنتاج ثقافة واحدة بديلة تكون بدورها نتاج الثقافة الرأسمالية وأسواقها وبالتالي إحداث- ثقافة العولمة- ومن ثم ستختفي الثقافة المحلية، وتعتبر شكلية في مقابل ثقافة كونية وتصير الثقافة المحلية قاب قوسين أو أدنى، وتذوب الهويات ويحصل الاستلاب ومن ثم الاغتراب عن المعنى والذات في أن واحد.

"تتشبع "العولمة" وتتغذى من العجرفة الثقافية التي تمتح أصلها من الجهل واللامبالاة تجاه أنساق قيم أخرى وتجاه حقها في الوجود. ويؤدي بشكل تدريجي وفعلي إلى نزعة ثقافية تسلطية عالمية: "افعل مثلي إن كنت تتشبث بحقك في الوجود". هذا النوع من الابتزاز يغيظ ملايير الخاضعين لسوء التعامل سلفا من طرف أنظمة خضعت برمتها "للعولمة"، والتي ترى فيها الملجأ الوحيد والدعم أمام التدمر الشعبي. وإذا لم تتغير الأشياء "فدمار العالم" لا مفر منه؛ لا إما عن طريق الابتلاع أو الإنفجار، بعد جيل، جيلين، أو ثلاثة أجيال"(المنجرة المهدي، 2007، ص87-88).

وخلاصة القول فالعولمة هي الوحدة العالمية في كل شيء وحدة الثقافة واللغة والملبس والمأكل والمشرب إذ هي: "ببساطة تقوية أواصر الترابط العالمي" وهي نشأت عن فكرة التدفق المتزايد للسلع والمعلومات والبشر والممارسات عبر الحدود الوطنية إلى أشكال الاتصال الأكثر واقعية ناتجة عن تطورات تقنية مثل النظام الدولي للنقل الجوي السريع والغرابة الأكثر حرفية وتطور الاتصال الالكتروني (جون توملينسون، 2008، ص10). وبدأت العولمة على مستوى النظريات والأفكار وتحولت إلى مستوى السلع والمنتجات، ومن ثم إلى مراقبة كل شيء عبر التصنت على الهواتف والتجسس على المواقع الالكترونية، وكذا إنشاء كاميرات مراقبة في الأماكن العامة.

2.الهوية:

تعرف الهوية بوجه عام بكونها مرجعية انتماء إلى ثقافة مجتمع من المجتمعات أو إلى أمة من الأمم، والتي تشكل رأسماله المادي وغير المادي على مستوى صيرورته الاجتماعية وحاضنته الأساسية، وكذا وجوده واستمراره على مستوى النسق الثقافي والقيمي المؤسس لهذا المجتمع أو ذاك، أو لهذه الأمة أم تلك.

يشير مفهوم الهوية في المدرسة السوسيولوجية إلى تعريفات متعددة الجوانب والزوايا، والذي يتعلق بمستوى فهم الناس وتصوراتهم عن أنفسهم وإدراكهم للمحيط الذي يحيط بهم ولما يعتقدون أنه مهم في حياتهم. ويتشكل هذا الفهم انطلاقا من خصائص محددة تتخذ مرتبة الأولوية على غيرها من مصادر المعنى والدلالة ومن مصادر الهوية هذه: الجنوسة، والتوجه الجنسي، والجنسية أو المنطلقات الإثنية (أوالقبلية) والطبقة الاجتماعية(غدنز أنتوني، 2005، ص 90). وبهذا المعنى يمكن القول أن الهوية هي مرجعية الناس الثقافية، وهي كل ما يشكل انتمائهم الروحي والعقائدي والثقافي والقيمي والتصورات والرموز والأشكال والتوجهات والمنطلقات، وكذا الغايات والأهداف المؤسسة لبنيتهم الثقافية والاجتماعية في تمثلهم وعقلهم الجمعي، والتي تترجم إلى سلوكيات وانفعالات على مستوى العلاقات الاجتماعية؛ ومن ثم تكون الهوية موجها للجماعات والأفراد.

يقسم علماء الاجتماع عند حديثهم عن الهوية في الغالب إلى قسمين اثنين وهما: الهوية الاجتماعية والهوية الشخصية ويمكن التمييز بين هذين النوعين عن طريق التحليل والتفسير غير أنهما مترابطان أشد الارتباط بحيث أن كلاهما مكمل للأخر، ويمكن النظر إليهما من خلال علامات ومؤشرات على ماهية هذا الشخص أو ذاك. وفي الوقت نفسه فإن هذه المؤشرات جميعها تحدد موضع الشخص بين أفراد أخريين يشاركونه الخصائص نفسها، ومن الأمثلة على الهوية الاجتماعية مثال: الطالب، الأم، المحامي، الصانع التقليدي، وعلى هذا الأساس فالهويات الاجتماعية تتضمن أبعاد اجتماعية فهي تعطي مؤشرات على أن الأفراد متشابهون مثلهم مثل غيرهم من الناس(غدنز أنتوني، 2005، ص90).

وإذا كانت الهويات الاجتماعية قائمة على التشابه بين الأفراد داخل مجتمعهم الذي يشكلونه، فإن الهوية الشخصية تضع الحدود المميزة لنا بوصفنا أفراداً وتشير الهوية الشخصية إلى عملية التنمية الذاتية التي نرسم من خلالها ملامح وخصائص مميزة لنا كأفراد مستقلين، والتي تشكل علاقاتنا مع العالم الخارجي، وتستمد الهوية الذاتية من المدرسة النظرية المؤسسة للتفاعلية الرمزية حيث يساهم التفاوض بين الفرد والمجتمع في رسم وإعادة تشكيل تصوره العام عن نفسه وعن العالم وعن الجماعة كما تربط بين الفرد والمجتمع في عملية متواصلة وتفاعلية وفيما تعمل البيئة الثقافية والاجتماعية عملها في تشكيل الهوية الذاتية، فإن العامل والخيار الفرديين يقومان بدور مركزي مهم في هذا المجال(غدنز أنتوني، 2005، ص91).

الهوية إذن هي كل ما يشكل وجود الفرد داخل جماعته المرجعية على مستوى التكوين النفسي والعاطفي والقيمي والثقافي والاجتماعي، والتي تتشكل عن طريق التنشئة الاجتماعية، فالهوية هي المعنى الاجتماعي. غير أنه ومع النظام العالمي المعولم، ظهرت هويات فردية نتاج لتحرر

الإنسان من جماعته المرجعية، وكذا لانهيار القيم في ظل العولمة. فهل نحن في عالم بلا هوية؟ كم طرح ذلك محيى الدين اللاذقاني في تسؤلاته الكونية "عالم بلا هوية".

إن ما يجيب عن ذلك التساؤل المركزي هو استمرار الصراعات في العالم والتي هي في الحقيقة نتاج عدم اختفاء الهويات والانتماءات، وتنامي وصعود الوعي الحضاري المتمثل في إشكالية نحن/هم، وهذا كله مرده للدفاع عن الهوية، ومطلب احترام الخصوصية المحلية.

تمر حروب خطوط التقسيم الحضاري بعمليات عدة وأتساع واحتواء وتوقف ونادراً ما تصل إلى حل، وتبدأ هذه العملية عادة متوالية ولكنها غالبا ما تتراكم (الحرب في أفغانستان وفي العراق، الصراع في سوريا، وفي اليمن وليبيا...) إن الهويات التي كانت في الماضي متعددة وعرضية تصبح مركزة، فالصراعات الطائفية تسمى حروب هوية(صامويل هنتجتون، 1999، ص43).

إن العولمة كما هي محددة وكما هي مفروضة بصيغها المختلفة تكون أحد الأسباب الرئيسية في تنامي وصعود العنف وكذا انتشار وتناسل النزاعات التي نلحظها على المستوى العالمي. العولمة هي أيضا ذلك الحقل المناسب لمواجهات كونية أخرى. فالصيغة التي تعالج الأمر كله هو تصحيح الاختلالات البنيوية والدعوة إلى التواصل الثقافي الذي سوف يدعم السلام العالمي، وفي ذلك يقول مهاتما غاندي "أريد أن تهب ثقافات كل الأراضي بمحاذاة منزلي، وبكل حرية ممكنة، لكن أرفض أن انقلب بهبوب أي واحدة منها"(المنجرة المهدي، 2007، ص90-91).

ثانيا. نماذج تطبيقية:

1.تجليات العولمة في الوطن العربي:

شكل الحديث عن العولمة انتشارا واسعا بين الأوساط الثقافية في المجتمع العربي لما له من أهمية قصوى على مستوى الفهم والتأويل لأن ذلك يساعد على تحليل وصفي لعملية الانتقال من مجتمع القبيلة إلى مجتمع المدينة، ومن ثم إلى مجتمع الدولة.

إن للعولمة مظاهر جمة التي انطلقت عبر تطور وسائل الاتصال وتبادل المعلومات وشبكة الانترنت وكذا ظهور الديمقراطية الليبرالية الغربية الحديثة والتناوب السلمي على السلطة، وقبول الأخر عبر الحوار الإنساني الخلاق البناء والمجدي، وحماية الأقليات وكذا انتشار مواثيق حقوق الإنسان والجمعيات المدافعة عنها، وكذا إلزامية قراراتها على الموقعين على تلك الاتفاقيات والتي أحيانا تكون غير مجرمة لسلوكيات انحرافية كحرية ممارسة الجنس خارج الزواج، وإلغاء الأسرة كمؤسسة اجتماعية أولى في المجتمع، و الدعوة إلى رفض الأمومة عن طريق تأسيس جمعيات نسوية ردكالية، وتأجير الرحم للحمل عبر التلاقح الصناعي، وكذا الدعوة إلى خروج المرأة للعمل من أجل تغير الأنظمة الأبوية البطريقية، وتحريرها على حد زعمهم غير أن الغاية هي تشيء و إستغلال المرأة لأن عملها إحتاجه النظام الرأسمالي من أجل الربح السريع عن طريق ما تقدم، وما هذا كله سوى الدعوة إلى المشاعية في كل شيء وتميعه وتنميط وعي الشعوب بدعم المادة وإلغاء الروح، غير أن الإشكال الذي طرح في هذا الصدد هو سؤال الهوية في الوطن العربي الذي تمخض عنه البحث عن الذات والمضمون، من نحن؟ وماذا نريد؟ وأين هو موقعنا في العالم؟ هذه إذن هي النقاشات الدائرة في الأوساط العربية المثقفة.

إن المجتمعات العربية بحاجة ماسة إلى التدفق الحر للمعلومات، وإلى توطين التكنولوجيا وتوسيع أفاق حرية التعبير، وإيجاد ضمانات دولية لتطبيق حقوق الإنسان، وحقوق الأقليات، والحفاظ على التنوع الإثني المثمر، الذي لا يتحول إلى عائق وعاهة إلا في ظروف الاستبداد السياسي وسيادة النظرة الأحادية المتعصبة، التي تجهض كل حوار إنساني خلاق(السيد ياسين، 2001، ص46) وهادف وذو أبعاد مفيدة ونافعة وأخذ منها ماهو صالح لتقدم مجتمعاتنا وترك العبث.

وخلقت هاته النقاشات موقفين متعارضين بالأساس من العولمة بين من يرفضها إطلاقا ويعتبرها غزوا وتدميرا وإنحلالا من الانتماء والهوية وبأنها خدرت الشعوب، وأعطت شخصية مزدوجة ومتناقضة على مستوى الخطاب والممارسة، وبين من يقبل بها ويجعلها وسيلة وغاية لمسايرة الركب المتطور وكذا من أجل التقدم والتطور، وسوف نأخذ الحالة الجزائرية على سبيل المثال، حيث عمل الساسة الجزائريون على تعريب المجتمع والدولة بعد جلاء الاستعمار عن أرضهم غير أن مشروعهم تم رفضه من قبل متطرفون متفرنسون يدعون إلى رفض التعريب، واعتبروا العربية تحجراً وانغلاقا والتعريب عملية مناقضة للانفتاح، والحضارة العربية عامل جمود ومعاداة لروح العصر على حد زعمهم وأن التمسك بها يشكل ثقافة ماضوية متحجرة (ناصر الدين سعيدوني، 2015، ص58)، تأخر ولا تقدم، وهذه هي العنصرية والإقصاء التي قدمت من الغرب إلى الشرق.

وهناك موقف وسطي ظهر كردة فعل على الحوار الدائر حول موضوع العولمة بين الرفض المطلق والقبول التام، وحدد نقطة انطلاقة نتاج قراءات للواقع الموضوعي المعاش، وذلك عبر تحليل عميق للمكنزمات والآليات المتحكمة في العالم، وبِناء مشروع علمي نتج عنه مجموعة من الإجابات العلمية والعملية تكمن أساسا في حوار جدي- حوار الحضارات بدل من صراع الهويات- وكذا هيمنة القوي- على اختلاف المرجعيات والثقافات بحيث يبنى هذا الحوار على أسس تكاملية رحبة تقدمية تنبذ التفرقة والتعصب وكذا الإقصاء متجهة نحو التلاقح الفكري الثقافي الهوياتي بدل التشرذم والقبلية المقيتة وسياسة الشتم ونعت الأخر بمنعوتات التخلف وتهمة الإرهاب الجاهزة وغيرها من الأوصاف التي تنعت بها أمة إقرأ وأمة الفكر والثقافة وهذه الاتهامات خلفت بعض الأحقاد لدى بعض المتطرفين سواء في الشرق أو الغرب، وهذا أنتج فشل ذريع لساسة العالم المتقدم، وقادته الذين يدعون التقدم والديمقراطية، وكذا الذين يعتبرون أنفسهم وصيين على الدين ويستغلونه لإضفاء شرعية على المستبدين، وكذا إضفاء شرعية المستبدين على أنفسهم بالسلطة الدينية واستعمالها من أجل تبرير العنف، وذلك عبر تقديم روايات مليئة بالمغالطات وسوء فهم النصوص الدينية، وتفسيرها ظاهريا حسب الانتماء الإيديولوجي الطائفي لأحدى المدارس المذهبية، ومن ثم استغلال ذلك في تضليل وعي الجماهير، وما نشوء التطرف لخير دليل على ذلك لأنه ينشأ في منابع الظلم وبيئة الاستبداد والقهر، ومن ثم تأتي عملية البحث عن المعنى في ظل الماديات وتطور وسائل الاتصال. إن المطلوب هو مسايرة الركب دون إزالة الثقافة أو التخلي عن الهوية، ولن يتأتى ذلك بمعزل عن التفكير الفلسفي.

"إن مجتمعنا يريد أن يحيا في تطور مع عصره وأن يعيش في تناسق مع مستجدات الفكر ومكتسباته يستفيد منها ومما حققته في جميع الميادين، دون أن يفقد شخصيته ويضيع هويته ويذوب في غيره، فيبقى إلى جانب مجاهدته للدخول في المجتمع الحديث ملتصقا بثقافته التي لا حياة ولا مستقبل بدونها"(عبد الوهاب التازي سعود، 2001، ص44).

لقد عانى المجتمع العربي بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية من الاستعمار الغربي الذي ظل غاشما على مدخرات العباد والبلاد. وقد يقول قائلا يتماشى موقفه مع توجهات المدرسة الاستعمارية بأن الغرب جاء لينقل إلى الشرق الحضارة الإنسانية ويحررهم من الاستبداد العثماني على حد زعمه- بل جاؤوا للنهب والتوسع- ومن ثم بدأت طريقة التعامل مع المجتمع العربي مبنية على نمطية تارة تتمظهر تمظهراً تنمويا، وأخر تحديثيا توطينيا منطلقين من فكرة مفادها أن الدول التي لا زالت متخلفة عن قاطرة الركب الحضاري العالمي يجب عليها أن تتبع نفس الخطوات والمسارات التي سلكتها المجتمعات الغربية لكي يتحقق لها النمو والتقدم، وما العولمة الحديثة إلا مظهر من مظاهر التغريب والتخريب يتجسد على الأرض بسياسة الأمر الواقع التي فرضتها الثقافة الغربية الغالبة من حيث الشكل والمضمون على جميع بلدان العالم. وما التطور الرأسمالي المعاصر لا خير إجابة عملية على هذا الوضع الذي يستغل الشعوب عبر تجديد آليات استغلاله وفق إستراتيجية خلق مؤسسات دولية على سبيل المثال لا الحصر منظمة التجارة العالمية، البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، وكذا الشركات المتعددة الجنسيات التي أصبحت مسيرة للعالم غير المتكافئ من حيث الفرص ومن حيث التوازنات الإقليمية والدولية. وتشكلت على إثر ذلك وخصوصا بعد الحرب العالمية الثانية معالم جديدة للعالم ستتجدد عقب انتهاء الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي في تسعينيات القرن الماضي مع حلول القطبية الواحدة بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ووصفها بشرطي العالم، واكتملت فصول العولمة، وإمتدادتها السياسية عقب أحداث 11 سبتمبر وما تلاها من أعمال عنف لا زالت سائدة في معظم الدول العربية والإسلامية كصيغة انتقام أخر فصولها في سوريا واليمن تتجاذبها منطلقات شرق أوسطية جديدة- وجماعات متطرفة عنيفة وأكثر تشدد في التوجه وصلابة في الطرح وردكالية في الفعل مدعومة من عدة أطراف إقليمية ودولية، هذا كله بعيد كل البعد عن مطالب الجماهير العربية التي خرجت معبرة عن رفضها التام "للحكرة" وسياسة التجويع والتهميش والإقصاء.

إن الحراك العربي والذي أطلق عليه الإعلام العالمي تسمية الربيع العربي الذي انطلق من تونس الخضراء وامتد إلى دول مجاورة كمصر وليبيا واليمن وسوريا الذي أقبر فيها لحسابات دولية إقليمية، وهذا الحراك ظهر كإجابة عملية ورد فعل طبيعي عن واقع هش مزري تعيشه الأمة العربية بسبب تبعات الاستعمار من جهة، وبسبب التخلف من جهة ثانية.

إن العولمة هي وليدة التطور الرأسمالي للعالم الحديث، والذي نشأ على العمل والجد وعدم الإسراف تحت موجه ديني بروتستانتي، وصدر للعرب ثقافة الاستهلاك والتبذير عبر التغرير بالجماهير غير الواعية مستهدفين المرأة العربية كزبون للسلع لأنها الأكثر اهتماما بالمظاهر، ومن ثم أصبحت الثقافة العربية ثقافة استهلاك، والذي يكبح ويزيل الفكر كما يقال.

تتمظهر العولمة في وطننا العربي عبر مدخلات ومخرجات ماكروسيوسيولوجية، وميكروسوسيولوجية انطلاقا من كونها عملية كونية نشأت عن طريق تطور وسائل الاتصال بأصنافها المتعددة التي غيرت من طبيعة البناء الاجتماعي العام للمجتمعات العربية، وكذا من مستويات الثقافة والقيم العربية التي تركز على المعنى والجوهر دون المادة والشكل، فهل المجتمع العربي يعيش حالة إغتراب؟

لقد غدت العولمة في الوطن العربي متجلية وقائمة في بنيات أفراده الثقافية والاجتماعية، وذلك عبر نزولها لجميع أقطار العالم، وتأسيسها لنمط حياة جديد تتحكم في أدق تفاصيله سواء أكان في مسألة الموضات على مستوى الملبس سروايل التجنس وتيشورتات، وتسريحات الشعر وحلاقته، أو اختيار الأطباق الشهية على مستوى الغذاء في المطاعم العالمية "بيتزهات" و"مكدونالدز"، والتوافد على الوجبات السريعة والأطعمة الجاهزة والمشروبات الغازية، وعدم الأكل مع العائلة كنتاج لظروف العمل، مما يقلل من التواصل الأسري. والثقافة المعلوماتية والفكر على مستوى الثقافة، ومفاهيم الديمقراطية على مستوى السياسة، والتجارة الحرة على مستوى الاقتصاد والتسوق في "كارفور" و"زارا" على سبيل المثال لا الحصر، والاتصال الإلكتروني- حيث أن أغلب الشباب يمتلكون حسابا إلكترونيا-، وكذا سهولة التنقل بين الدول مما يسهل في مستوى الاجتماع المباشر بين مجتمعات مختلفة ثقافيا وحضاريا عن بعضها البعض.

إن هذه العوامل كلها ساهمت في التأسيس لثقافة عالمية جديدة تتماشى مع الأدوات والوسائل الجديدة التي ساهمت بدورها في تحولات جمة شهدها العالم وأصبحنا نتحدث عن منتجي الثقافة ومستهلكيها، وما وسائل الاتصال الجماهيري لاخير دليل على ذلك (فايسبوك، وات صاب، تويتر...) والتي جعلت القيم مسألة ثانوية وحل محلها الميوعة والعلاقات المفتوحة غير دائمة، وخاصة في الأوساط العربية التي تعتبر هذا النوع من العلاقات بين الجنسين جديدة عليها من حيث التشهير بها، واعتبارها مسألة شخصية تدخل ضمن الحرية الشخصية، في مقابل التحريم والتجريم الذي كان سابقا، وكذا ظهور وسائل لمقاومة ظاهرة العولمة وخاصة ما ظهر مؤخرا في الشواطئ الفرنسية وهو الحق في اختيار ملبس السباحة يتماشى مع اختيارات الأفراد حيث يلائم عباداتهم "البوركيني" والضجة الإعلامية التي عقبت ارتدائه وتم منعه بالقوة حتى تغير قرار المنع من قبل المحكمة الفرنسية، وأعتبر أمرا شخصيا، ولا يشكل أي تهديد للمصطفين الفرنسيين غير أنه مافتئ أن ينطفئ الحدث، إلا أن ظهر لباس أخر يرد على البوركيني وهو "الكراوكيني"؛ والذي وصفه البعض بحوار الأديان على البحر على اعتبار أن المسيحيات هن اللاتي لبسنه، غير أن الإشكال هو أن البوركيني والكراوكيني غير موجود لا في الثقافة الإسلامية ولا في الثقافة المسيحية، وما هما إلا مظهرا من مظاهر العولمة الدينية الجديدة.

غير أن هناك نقطة بغاية الأهمية بمكان وهي التهجم على مرتادي الحجاب، وكذا معفي اللحية بدعوى التحرر والتقدم ووصفهم بالمعقدين والمتطرفين والمكبوتين. وإعطاء طابع السخرية على الفقيه أو المتدين، وخصوصا من قبل بني جلدتنا فما بالك بالغرب، وهذا ماهو إلا تجلي من تجليات توجيه العولمة للعقليات والذهنيات وتحديد طريقة تصوراتهم للناس وللأشياء.

إن العولمة أثرت على البنية الثقافية للمجتمعات العربية وغيرت من طبيعة بنية اجتماعهم العام، وتسوقهم إلى الحداثة إن غامرنا بالقول، ومن ثم فالمجتمع العربي عبر هذا كله يعيش حالة اغتراب عن الذات وعن المعنى.

2.مظاهر العولمة في المجتمع البيظاني:

لقد بينا سابقا أن للعولمة تجليات اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية كانت ولا تزال متواصلة بطريقة تغييريه -تغيير البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمعات-، حيث أن هناك تحولات عالمية كونية غيرت إيقاع سير المجتمعات بوتيرة سريعة، وتماشيا مع ذلك سنعرج إلى التعرف على مظاهر العولمة في المجتمع البيظاني، وتحديدا بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب جنوب المغرب. فمن هم البيظان؟

شاعت كلمة البيظان في المصطلحات الجغرافية العربية لتدل على وصف صنهاجة الصحراء في مقابل شعب السودان الواقع جنوبا. ثم أصبح مصطلح البيظان فيما بعد يطلق على الناطقين بالحسانية منذ القرن الحادي عشر الهجري -السابع عشر الميلادي- لكنه كان مقتصرا على النبلاء من العرب المحاربين، "أَهل المَدافع" والمهتمين بالشأن الديني "زْوَايَا"، ثم تطور اللفظ ليطلق على كل من يتحدث الحسانية بغض النظر عن لونه ومهنته، مع بقاء الاستخدام الأصلي في الاستعمالات الخاصة لدى نخبة المجتمع البيظاني (ولد السالم حماه الله، دس، ص152).

وعلى هذا الأساس يظهر جليا التمايز والاختلاف على مستوى تحديد مفهوم البيظان، وبغض النظر عما إذا كان يطلق على أصحاب البشرة البيضاء، أو على كما يعود أصل المجتمع البيظاني الذي أطلق عليه لفظة (الحسانيون نسبة إلى بني حسان) إلى عرب معقل الذين وفدوا من اليمن والحجاز إلى المغرب، إلا أن استيطانهم في بداية الأمر كان شمال وادي نون، كما أنهم بدؤوا في البحث عن بيئة جغرافية تتلاءم مع الوسط الطبيعي الذي كانوا يعيشون فيه، واتجهوا إلى مناطق إلى الساقية الحمراء، وتيرس وموريتانيا الحالية (مقتطف من مقابلة سابقة مع شيخ زاوية ماء العينين بالسمارة، خريف 2013). والبيظان يقطنون شمال غرب إفريقيا، وتحديدا بـ: شمال غرب مالي، وموريتانيا، وجنوب غرب الجزائر، وجنوب المغرب. وما يهمنا في هذا الصدد هم البيظان الذين يقطنون في الجنوب المغربي.

وما يعرف عن مجتمع الجنوب المغربي هو كونه يتكون في تشكيلاته الاجتماعية من قبائل متعددة شأنه شأن البيظان عموماً، كانت تعيش في البادية معتمدة على الرعي الترحالي كأسلوب لحياتهم المعيشية، كما كانت القبائل الصحراوية تتجمع في أماكن تكون متوفرة على الأرض الغنية بالماء والعشب. وكان أعضاء الوحدة القبلية يسكنون متجاورين في مخيم سكني.

إن المتتبع لواقع الحال في المنطقة الصحراوية بعد استرجاعها يلحظ عدة تغيرات قيمية وثقافية مست البنية الاجتماعية لمجتمعها، أول فصولها كان مع سياسة التوطين التي انتهجتها الدولة الوطنية منتصف السبعينات مع البدو الرحل قصد إدماجهم في مراكز استقرار بحيث تم استبدال الخيمة بالمنزل والجمل بالسيارة، وبذلك تكون المنطقة شهدت نهضة عمرانية فائقة السرعة والفجائية، وهذا الانتقال من البداوة التي يميزها الترحال الرعوي إلى المدينة وظهور العمل المأجور، وخروج المرأة للعمل كنتاج للفضاء الجديد، وتقسيم العمل بالإضافة إلى ولوج الإدارة

البيروقراطية. والعيش في تجمعات سكنية مشتركة جامعة لقبائل متعددة، "أصبح أفراد المجتمع يسكنون في منزل مقسم على غرف: غرفة الأطفال، غرفة النوم للأبوين، صالة الضيوف...، الأمر الذي أثر على التواصل الأسري" (مقتطف من مقابلة مع شاب بالسمارة، صيف 2018).

عرفت المنطقة تغيرات اجتماعية وثقافية أصابت التنظيم الاجتماعي العام للمجتمع بحيث غيرت من طبيعة بنيته الاجتماعية التقليدية بفضل ظاهرة المدينة التي يرجع إليها السبب الرئيسي في تلك التحولات الطارئة، لأن الانتقال من طور البداوة إلى طور الحضارة يتطلب تغييرا شاملا وكليا في تركيبة المجتمع.

وفي الحواضر الجديدة ومع ظاهرة العولمة التي غطت ساكنة المعمورة حل الاستهلاك المظهري، والمتمثل في مصاريف أفراد المجتمع المرتفعة، والتفاخرية، والتنافسية، التي تتمظهر في سلوكياته الاقتصادية، والتي نردها بالطبع إلى ظاهرة التمدن السريع الذي شهده مجتمع البحث، والذي وضع قطيعة تامة مع قيم وثقافة المجتمع البدوي في مقابل قيم المدينة الجديدة، "هناك تجليات عديدة للعولمة مثلا الصغير لم يعد يحترم الكبير ولا الكبير يرحم الصغير، والمجتمع يعيش حالة استلاب فكري وثقافي، وفقد قيمه وصار مقلدا، ولم يعد يعمل فكره في التعاطي مع ماهو وافد"، ومن ثم لم تعد قيم الشرف والأخلاق الحميدة والفتوة محددة للسلوك، وحل محلها درجة تملك المال والغنى، كما أصبحت للأرض قيمة في عملية الاستثمار التي تتحدد في المجتمع عن طريق درجة التملك (الترسالي محمد، 2016/2015، ص430)، في المقابل كانت الأرض ملكا مشاعا للقبيلة أرض القبيلة/ تراب القبيلة. وهذا المعطى الجديد سوف يولد الفردانية على مستوى التعاطي مع الوضع الجديد كتجلي من تجليات العولمة؛ إننا إذن أمام بداية إنهيار القيم.

إن سرعة تأثر البدوي ناتجة عن تكيفه مع الظروف الايكولوجية والمناخية التي تمتاز بها الصحاري والفيافي التي جعلته يعيش مع تقلباتها المناخية بمرونة ويبتكر الوسائل المفيدة في ذلك، الأمر الذي اكتسبه من الواقع المعاش عن طريق التجربة، وهذا الأمر جعله يبحث عن الوسائل المريحة فلعلها المدينة الجديدة، فهل غاية البدوي هي التمدن؟ كما ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته الشهيرة.

إن البدوي محكوم عليه سواء بإرادته أم بغير إرادة أن يعيش مع الحضارة ويتكيف معها وينخرط في قوانينها ومستحدثاتها لأنها أصبحت سائدة وعالمية مع النظام العالمي الجديد والمعولم، وذلك من أجل أن يفك عزلته عن العالم ومع هذا النمط الجديد ستتسرب إليه ثقافات جديدة مع التواصل الحديث، وكذا سرعة التنقل والسفر التي أوجبته الظروف المهنية الجديدة، إذ سيتعرف على طبائع مختلفة وعمران فائق التخطيط والتهيئة، وسلع جديدة مع الأسواق التي أصبحت مفتوحة أمام الجميع، وكذا مع سياسة الاندماج العالمي التي أعطت معايير جديدة لطريقة العيش وتدبير الوقت، ومع هذا الوضع الجديد المرتهن بساسة العالم وموجيه حيث نلاحظ عالما جديدا يعيش وضعا جديدا ومخالفا لما كان يعيشه سابقا.

لقد صدر لنا الغرب إذن ثقافته الحضارية التي طورها بمفكريه ومخترعيه، وأصبحت مغطية للكون بفضل السبق للابتكار والتصنيع ومن ثم أصبحنا تابعين له في كل شيء.

إن أفراد المجتمع المدروس أصبحوا يعيشون حالة معولمة جديدة من خاصياتها العالمية التي أدت إلى التبدل في كل شيء في الذهنيات والعقليات والوسائل والغايات والأهداف والمنطلقات، الأمر الذي انعكس على الحياة الاجتماعية حيث أصيب المجتمع بحالة من الذهول والصدمة جعلت أفراده يعيشون حالة هيجان شادة بعيدا عن التنظيم والنظام العام، وهذا ما يتمظهر في المناسبات الاجتماعية، وضعية المرأة، الأسرة، زواج، ولادة، عزاء، سفر، مزارات، انتخابات، سفر، تجوال، مصاريف، قضاء العطل السنوية، العلاقات المهنية، العلاقات التعليمية، التعامل مع الإدارة.

إن العولمة حولت مجتمع الساقية الحمراء ووادي الذهب من مجتمع متكافل إلى مجتمع متفاخر، وقللت من التواصل الأسري وعدم قيام الأسرة بدورها التربوي والوجداني حيث نسجل غياب العاطفة والحنان على مستوى العلاقات الاجتماعية وحلول المصلحة الضيقة والنفعية وكذا انتشار الحركة الانتهازية بسبب ظروف المنطقة السياسية، وكذا هناك تقلصا عرفته ظاهرة "الجَّماعة" التي كانت سائدة زمن البادية وهي الحديث في أمور متعددة يوميا تتخللها حفلة شاي، وكذا نقص الكلام وخاصة بين الأجيال الناشئة حيث أنه كان يضرب في البادية مثلا شعبيا يتمثل في " تَكلم تَتْعرف"؛ تحدث لكي يعرفك الناس. وكذا تم إعطاء القيادة للمرأة والشباب في المدينة. بالإضافة إلى عامل الهجرة والتدفق الديمغرافي إلى المنطقة.

وفي تحليل تجليات ومظاهر العولمة في مجتمع البحث سنبدأ بمؤسسة الأسرة حيث عرفت بدورها تبدلات وتحولات عميقة وذلك بانتقال العائلة الصحراوية من عائلة ممتدة إلى أسرة نووية وذلك عبر ظاهرة "لَعْزِيلْ"[1] التي عرفته الأسرة الصحراوية المتمدنة، الأمر الذي أثر على التنشئة الاجتماعية للأفراد، بحيث تكلف به الأب والأم في الأسرة النووية الجديدة عكس فترة البداوة التي كانت مهمة الأجداد، كما تم تغيير مستوى إستراتيجية الزواج وطقوسه بحيث لم يعد الأب يختار شريكة حياة ابنه، بل أصبح الفتى والفتاة يختاران بعضهما البعض من أجل الزواج، وقد يحصل التعارف في وسائل الاتصال الحديثة، إننا إذن أمام حرية اختيار شريكة الحياة وشريكها، كمظهر من مظاهر الاستقلالية التي أنتجتها العولمة، ولم يعد كذلك حدث الزواج يتم باكرا كما كان في البادية الأمر الذي تولد عنه ارتفاع معدل سن الزواج، وذلك راجع بالأساس إلى عامل التعلم والبحث عن وظيفة، كما أنه من الملاحظ في هذا الإطار هو عزوف العديد من الشباب عن الزواج بسبب غلاء تكاليفه، وكذا بسبب نسبة البطالة المرتفعة في المنطقة، ولم يعد تمثل المرأة الصحراوية للزواج متجسدا في الحصول على الذرية فقط بل تجاوز الأمر ذلك وأصبح الزواج غاية في حد ذاته (محمد الترسالي، 2015، ص370) . ولتفسير هذا القول تجدر الإشارة إلى أن الزواج في المنطقة كان "زواجا ترحاليا"؛ بمعنى أنه إن لم يحصل الاتفاق فيحق للمرأة الطلاق بحيث كان يحتفل بحدث الطلاق وبالمرأة المطلقة، وتتزوج فور انقضاء عدتها، وهكذا دواليك، فمن النسوة من تزوجن لأكثر من عشرين مرة، وهذا الاحتفال يحدث في المجتمع البيظاني عموما،- كما أن هناك خبر تداوله أحد المواقع الإلكترونية الإخبارية يفيد بأن سيدة موريتانية تزوجت أكثر من خمسين مرة، والسبب عندها هو أن الرجال الذين تزوجت بهم لم

[1] - لَعْزِيلْ: هو إستقلال الابن عن أهله، وانفراده بمسكن خاص به يجمعه هو وزوجته.

يحافظوا عليها ولا على مشاعرها، وشعرت بالأمان إلا مع ثلاثة رجال منهم. وكل من يعرفها يشهد لها بالاستقامة والنزاهة- وفي اعتقادي المتواضع أنه المجتمع البيظاني هو المجتمع الوحيد الذي يحتفل بحدث الطلاق، حتى سمي ذلك ب "حفلة طلاق" ولم يعد منع تعدد الزوجات قائما، لأن شرط المرأة البيظانية في السابق كان هو "لا سابقة ولا لاحقة"، أما اليوم وبفعل الاستقرار والوضع الاقتصادي الجديد، وظاهرة العولمة أصبح الزواج "زواجا إستقراريا" مع حالة الاستثناء طبعا، وهكذا أصبح هناك من يعدد الزوجات.

ومع ظاهرة العولمة فالعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع تبدلت كنتاج للوافد الجديد -وسائل الاتصال الحديثة- التي ركزت على الفردانية وكذا على النفعية في مستوى التعامل. لقد أصبح الناس يتحدثون مباشرة عبر هواتف ذكية ويتبادلون الصور مع أفراد يسكنون في مدن أخرى ودول وقارات أخرى وقد يؤدي ذلك إلى ارتباط مرده العالم الافتراضي ويعلق مستجوب على هذا الأمر بقوله: "الطَافِيلاَتْ ضَيْعَتْهُمْ التكنولوجيا"(مقتطف من مقابلة مع شاب بالسمارة، صيف 2018) بمعنى؛ البنات أثرت عليهم التكنولوجيا سلبا.

إن الانتقال من مجتمع بدوي إلى مجتمع متمدن أنتج تغيرًا في شبكة العلاقات الاجتماعية، وفي الأدوار وفي المكانة الاجتماعية وفي نمط العيش، وفي المواقف والتمثلات وفي طبيعة الحياة الاجتماعية بأكملها، بحيث إن "لتحول المجال والعلاقة مع المجال دور هام في تغير العلاقات ومكان اللقاء، كظروف السكن بالدور المغلقة عكس السكن بالخيام التي كانت مفتوحة، إنه تحول من المنفتح إلى المنغلق الذي فرضته شروط الإقامة بالمدينة(دحمان محمد، 2006، ص249).

ومع ظاهرة العولمة تقلصت خصوصية الأفراد، وأصبح كل شيء مراقب وممكن ومباح في أن واحد تحت مفاهيم تنعت أحيانا بالتقدم وأحيانا أخرى بالحرية الشخصية، كما أن هناك ملاحظات مسجلة بخصوص التعامل مع وسائل الاتصال الالكترونية حيث أصبح الشباب يتناول بحرية مطلقة صور الخلاعة، وكذا أصبحت الفتاة أكثر جرأة في فتح نقاشات عاطفية وجنسية، وهذا كله كتعويض حالة الطابو والمسكوت عنه (الجنس والسياسة، والدين) التي يعيشها أفراد مجتمع الوطن العربي، تحت مسمى كل ممنوع مرغوب؛ (مقتطف من مقابلة مع كهل بالعيون، صيف 2018) بمعنى إفراغ المكبوتات في وسائل التواصل الاجتماعي. وكذا مكوث الأفراد ساعات طويلة في الفيس فوك والواتساب، بحيث أصبح الكل له مسكن في عالم افتراضي يتناول فيه أخباره الشخصية وخصوصيته. كما أن الملاحظ هو انتشار المخدرات العابرة للقارات بشتى أنواعها في منطقة البحث. و أصبحت العلاقة بين الجنسين مفتوحة تؤطرها العولمة وتوجه سيرها. كما أن هناك تأثر بارز بوسائل الإعلام بالنسبة للعلاقات الزوجية حيث ظهرت العشيقة والعشيق كدعوة للتقدم، وهذا يعني أن النظام المعولم يريد أن يقضي على الطابع الرسمي لأي مؤسسة، ومنها مؤسسة الأسرة كأول خلية في المجتمع.

قضت العولمة على الفواصل والحدود وحل محلهما العلاقات المفتوحة والمصلحية وبدون قيود ولا رقابة اجتماعية تذكر. هذا نتج عنه نوعا من التنافر بين أجيال المجتمع تحت ما نسمية بصراع الأجيال، فالعالم المعولم أصبح يقصي الكبار ويعطي أولوية للنساء والشباب تحت

شعارات وتسميات حقوق المرأة والطفل، وإدماج الشباب، وذلك لسهولة توجيه عقليات الصغار والشباب.

إن الخطاب الذي تقدمه العولمة مبني أساسا على التفوق الغربي، وتبعية الشرق له، ويستهلك ما ينتج بنفس الأدوات، وكذا موضوع حقوق الأقليات وحقوق الإنسان ماهو سوى مظلة للتدخل في شؤون الدول الداخلية، وفتح أسواق جديدة، والحصول على امتيازات هذه هي الغاية من اللعبة المكشوفة، التي بدأت الدول الغربية بممارستها على دول العالم الثالث(مقتطف من مقابلة مع شاب بالعيون، صيف 2018).

إن غاية العولمة هو مزيدا من الاستهلاك والتشجيع عليه ولا تريد مجتمعات الجنوب أن تكون منتجة تريدهم مستهلكون، وكذا العمل على محاربة الهويات المحلية ومحوها، واستبدالها بهوية عالمية موحدة، فالقوة الغربية تعمل على محاربة الإسلام محاربة خفية، وتحدد إجابات وبديل عن القيم الإسلامية، وبالتالي فهدف العولمة هو الربح والتحكم، ومحاربة الإسلام كاستمرار للحرب الصليبية بوسائل جديدة (مقتطف من مقابلة مع شاب بالسمارة، صيف 2018).

إن انهيار البناء الاجتماعي والثقافي التقليدي للمجتمع المدروس واستبداله بثقافات أخرى ناتجة عن العولمة – ثقافة عولمة- مع الاحتفاظ الشكلي بالثقافة المحلية على شاكلة فلكلور والذي تدعمه الحكومات العربية وتظن أنها حامية للخصوصيات وحارسة على التنوع الثقافي، وهو في الحقيقة سوى مظهرا من مظاهر التحريف والتحكم والتوجيه عبر شروط صندوق النقد الدولي وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمناهج التربوية والتعليمية. إن الثقافة المحلية أصبحت على شكل هيكل مليء بالثقافة العالمية -عولمة القيم- على مستوى شكلها، ومع ذلك سيحدث تغيرا شاملا في الغايات والمنطلقات ويصبح تمثل الفرد متجها صوب تملك المادة والمال من أجل دخول السوق والتهافت على اقتناء السيارات الفاخرة وبناء المنازل المزركشة، وكذا سيحل الاستهلاك المظهري والمصاريف التي تصرف في الكماليات كمظهر من مظاهر إغراء السوق والعولمة، هذا على المستوى العام، وعلى المستوى الخاص النفسي المتعلق بتركيبة البدو التي يحب فيها الظهور والزعماتية والتملك(مقتطف من مقابلة مع شيخ بالعيون، صيف 2018).

لم يعد الناس كم في السابق يتحدثون عن أخبار المطر والأرض الغنية بالعشب- تراب ناعمة- ويجتمعون لتدارس أمور القبيلة والدفاع عنها في حالة وجود اعتداء خارجي وأمن حدودها بل تم تجاوز ذلك، فأصبح الحديث عن الانتخابات وعن الرواتب الشهرية وعن الأملاك، وعن فواتير الماء والكهرباء وغلاء المعيشة وعن الخضر والفواكه، وعن مكان قضاء العطلة، وكذا ثقافة "Le week-end" / عطلة نهاية الأسبوع والعشاء خارج البيت ليلة الأحد في مطعم راقي، هناك إذن تحولات غذائية حيث وفدت أطعمة عالمية جديدة على منطقة البحث.

ومع العالم المعولم، أصبح هناك مفاهيم جديدة مثل الناس طلعت إلى القمر وأنت لازلت تفكر هكذا، وكذا كل شيء موجود في الأسواق، وكذا الحياة صعبة والمادة قليلة، ومجتمع لا يرحم، ولا يوجد شيء بلا ثمن...الخ(مقتطف من مقابلة مع شابة بالعيون، صيف 2018).

يتجه المجتمع في الجنوب المغربي إلى الحداثة - المفهومة بشكل خاطئ لأن المجتمع عندما يتفسخ فهذا لا يعني أنه حديث، بل هناك استلاب هوياتي يتعرض له (مقتطف من مقابلة مع شاب

بالعيون، صيف 2018)-، ولكن بصورة بطيئة بفعل تطور العالم وعملية التأثر والتأثير بالرغم من العادات والتقاليد التي لازالت منتشرة بين الأوساط الشعبية كموضوع القبيلة التي يتم إحيائها في مواسم اجتماعية من قبل عدة متدخلون من بينهم الشيوخ والأعيان، وحتى الطبقة المثقفة.

أصبحت القبيلة منسباتية أكثر مما كانت عليه بحيث كانت توجه حياة الأفراد والمتحكمة في كل شيء شأنها شأن مؤسسات الدولة اليوم، غير أنها لم تعد تقوم بنفس الوظيفة، وتستحضر للدفاع عن المصلحة في مناسبات كالانتخابات والغايات النفعية بقع أرضية، منح شهرية...، فالعودة إليها هو دفاعا عن المصلحة فقط(مقتطف من مقابلة مع كهلة بالسمارة، صيف 2018) غير أنها لم تلغي تسرب ثقافة العولمة إلى المجتمع المحلي، وذلك لأن العالم يتجه إلى الوحدة الكلية إن غامرنا مرة أخرى بالقول.

سوف تقضي العولمة على الخصوصيات المحلية وتستبدلها بثقافات عالمية موحدة مع الاحتفاظ الشكلي بالثقافات المحلية الأمر الذي سوف ينتج عنه توحيد الذهنيات والعقليات، ومع بعض الاختلافات الناتجة عن التباعد الحضاري. حطمت العولمة إذن النظام والخصوصية، وجعلت كل شيء سلعة، وميعت العلاقات على اختلافها.

لقد ظهرت مع العولمة مفاهيم جديدة وطرائق للعيش مستحدثة نتيجة للسهولة التواصل وعالمية الإنسان وعولمة الإعلام والأسواق المفتوحة التي جعلت الناس يفكرون في اقتناء الجديد والموضة على مستوى الملبس والأثاث وتنظيم أثاث المنزل وتهيئته، وقد يتأثرون في ذلك عن طريق وسائل الإعلام كالمسلسلات والأفلام المكسيكية والتركية المدبلجة، بحيث انتشرت في أسواق المنطقة أحذية وحقائب تسمى على أسماء أبطال المسلسلات المكسيكية كمسلسل "كوادلبي"، "نعل كوادلبي" في تسعينيات القرن المنصرم وتقليد مشيتها حيث ظهرت عرجاء في المسلسل، وكذا حقائب وعطور لميس في مسلسل سنوات الضياع، وكذا السينما الأمريكية هوليوود، وكذا التأثر بطرق العيش الجديدة بواسطة البرامج التلفزيونية والإعلانات الموجهة بغية الإشهار الهادف قصد تسلية الشعوب. وكذا هناك تحولات غذائية مهمة عرفتها المنطقة كتوافد المشروبات الغازية الكوكاكولا، والوجبات الجاهزة البيتزا، والسَلطات والحلويات، والمكسرات بأنواعها، وكذا الدخان بأنواعه المختلفة.

تتنوع رغبات الأفراد مع العولمة وسلوكياتهم في كل مكان أكثر فأكثر، وذلك إلى التطور بكيفية ذاتها، فيجري الكلام على "كوكا كولا"، "ميكروبروسيسير"، "جينز"، أفلام، "بيتزا"، منتوجات التجميل، أدوات الاستحمام والاستجمام، آلات التصنيف. فإذا كان ثمة توجه نحو أسلوب حياة شامل، فذلك لأن المستهلكين استنبطوا العالم الرمزي المقطر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية من خلال الإعلانات، الأفلام، برامج التلفزة، وبالأخص تلك الآتية من الولايات المتحدة، المرقاة صراحة إلى موجهات لعولمة جديدة (ارمان ماتلار، 2008، ص130).

إن العولمة ومع وسائل الاتصال الحديثة التي حطمت الحدود الخارجية والداخلية، وكذا قضت على علاقة الحشمة والوقار بين أفراد المجتمع، وكذا ظهرت تمثلات فردية تعطي أهمية رئيسية للوضعية المهنية التي تحدد المكانة العالية للفرد، وكذا أصبح الناس يتهافتون وراء الربح وجمع المال، ففي المدينة الغني يزداد غنا والفقير يزداد فقرا (مقتطف من مقابلة مع شاب بالسمارة،

صيف 2018)، ومن ثم يتحدد وجود طبقي لمن يدفع أكثر ستقدم له خدمات أفضل، وبواسطة ذلك ستتحدد المكانة العالية للفرد في المجتمع "قل لي كم عندك من المال أقول لك كم تساوي" (مقتطف من مقابلة مع شابة بالعيون، صيف 2018)، هناك فوضى في العلاقات الاجتماعية؛ وهكذا فقد عمت ثقافة العولمة في مجتمع الساقية الحمراء ووادي الذهب بفضل الحركية والديناميات السوسيومجالية، والتطور التكنولوجي السريع الذي عرفه العالم. لقد أصبحت العولمة إذن موجهة لسير المجتمعات على اختلاف تكويناتهم الهوياتية، ومواقعهم المجالية.

خاتمة:

على سبيل الختام، يتضح مما سبق تقديمه أن العولمة بتجلياتها المختلفة ومظاهرها المتنوعة، وباعتبارها نظاما عالميا جديدا أصبح موجها أساسيا لحياة المجتمعات والأفراد سواء علموا بذلك أم لم يعلموا، أو بإرادتهم أم بغير إرادتهم، لأنها تمظهرت في شتى ميادين الحياة الاجتماعية، الأمر الذي نتج عنه مجموعة من التغيرات البنيوية التي غيرت من طبيعة الذهنيات والعقليات على مستوى التصورات والاختيارات الجديدة، وأصبح الكل يتحدث بمفاهيم مستوردة ناشئة في بيئة غربية، وتلك المفاهيم اعتبرت من الأمور المستجدة على العصر، الأمر الذي يقتضي المسايرة معها. ومن ثم أصبحت موجهة للشعوب والحكومات على حد سواء، وبالتالي فهي قائدة إلى التطور واختزال الزمن والمكان بواقعية العالم قرية صغيرة. يقود هذا الابتكار الجديد والنظام المستحدث في رأي غالبية الناس إلى التطور والتقدم في شتى مناحي الحياة الاجتماعية مع إغفال تام للسلبيات الناتجة عن هذا النظام الذي يعتمد على النفعية والربح السريع، وكذا إغراء السوق عبر ما يقدمه من سلع بغية التشجيع على الاستهلاك، واختزال الإنسان في قيمته المادية مع إغفال تام لثقافته المشكلة لهويته الأساسية.

قضت العولمة إذاً على الهوية التي تعتبر الضامن الوحيد على استمرارية الوجود الثقافي للمجتمعات العربية وإستمراريتهم عبر العطاء، وذلك على مستوى الاستقلالية والابتكار الذي يقود حتما إلى التقدم الاختياري، بوسائل محلية ومشروعة. كما عملت العولمة على تذويب الثقافات المحلية واستبدالها بثقافة عالمية جديدة تكون بالغاية والهدف موحدة؛ الأمر الذي انعكس على سير الشعوب وخاصة الشرقية منها حيث أثرت العولمة على البنية الثقافية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرت من طبيعة البناء الاجتماعي العام للمجتمعات العربية عبر تجلياتها المختلفة والمعاشة اليوم، وذلك عن طريق الثورة التكنولوجية التي سهلت التواصل، ودعمت كذلك الأسواق المفتوحة.

ومن خلال النموذج التطبيقي الثاني في العرض المقدم الذي وضح معالم العولمة وتأثيراتها على بنية مجتمع الساقية الحمراء ووادي الذهب البيظاني، والذي لا ينعزل بدوره عن واقع المجتمعات العربية. كما أن التحولات العميقة والسريعة والفجائية الذي عرفها تعد تمظهرا من تمظهرات النظام الرأسمالي المعولم. غير أن ذلك كله لم يمنع أفراد المجتمع المدروس من التمسك بثقافتهم وهويتهم التي لا تزال قائمة يحملونها أينما حلوا وارتحلوا، فصحيح أن الهوية لم تختفي بالرغم من إغراءات العولمة وما تقدمه من مثيرات، بل نلاحظ تماشي المحلي مع العالمي كإستراتيجية تتمثل في تعامل البدو المتمدن مع المستجدات الطبيعية والحضارية الجديدة. وهذا ما

يتحتم على القائمين بتدبير الشأن العام بالمغرب بمواصلة العمل على حسن إدارة التنوع الثقافي في المجتمع المغربي، واستثماره في خدمة قضايا حقوق الإنسان والتنمية التي تتمحور حول الإنسان قبل كل شيء.

قائمة المراجع:

1.أرمان ماتلار(2008)، التنوع الثقافي والعولمة، تعريب خليل أحمد خليل، ط1، دار الفاربي، بيروت، لبنان.

2.الترسالي محمد(2016)، ديناميات التحولات الاجتماعية والثقافية في المجتمع الصحراوي من البداوة إلى التمدن، دراسة سوسيولوجية لمنطقة الساقية الحمراء، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع، (مرقونة) بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس.

3.جون توملينسون(2008)، العولمة والثقافة تجربتنا الاجتماعية عبر الزمان والمكان، ترجمة إيهاب عبد الرحيم محمد، مجلة عالم المعرفة، ع8، تصدر عن: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

4.دحمان محمد(2006)، الترحال والاستقرار بمنطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر برانت، الرباط.

5.ستيورات هول(2008)، ترجمة بول طبر،"حول الهويات الثقافية" إضافات المجلة العربية لعلم الاجتماع، ع 2.

6.السيد ياسين(2001)، العولمة والطريق الثالث، ط2، سلسلة مختارات ميريث للنشر والمعلومات، القاهرة.

7.صامويل هنتجتون(1999)، صراع الحضارات المادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، ط2.

8.عبد الوهاب التازي سعود(2001)، ثقافتنا والعولمة، سلسلة الدروس الافتتاحية رقم:3، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

9.غدنز أنتوني(2005)، علم الاجتماع مع مدخلات عربية، ترجمة وتقديم فايز الضياع، الطبعة الرابعة، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، بيروت.

10.فؤاد مرسي(1990)، الرأسمالية تجدد نفسها، عالم المعرفة، ع147، مارس، الكويت.

11.لبيب طاهر(2006)، سوسيولوجيا الثقافة، الملتقى، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

المنجرة المهدي(2007)، قيمة القيم، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

12.ناصر الدين سعيدوني(2015) واقع التعددية الثقافية في الجزائر بعد الإستقلال (1962-2014)، مجلة عالم الفكر، م44، ع2، الكويت.

13.ولد السالم حماه الله(دس)، تاريخ بلاد شنكيطي موريتانيا من العصور القديمة إلى حرب شربيه الكبرى بني أولاد الناصر ودولة إبدكل اللمتوني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

14.Edward Burnett Taylor (1931), Primitive Culture, John Murray, .London.